السياسة الوقفية والخيرية ابان الحماية الاسبانية بشمال المغرب

د. محمد المصمودي

طبيب باحث في التاريخ
طنجة

التوتر الذي عاد ليطبع علاقات المغرب مع بعض الدول الأوربية مؤخرا ، ألمانيا و اسبانيا بالخصوص، أعاد الى أذهان بعض المغاربة قصة مؤتمر الجزيرة الخضراء (16 يناير الى 7 أبريل 1906) الذي أسفر عن توافق دولي انتهى بإخضاع المملكة المغربية للحمايتين الفرنسية والاسبانية وذلك من أجل تهدئة المنطقة، بعدما أرضيت جل القوى الاستعمارية الدولية بالامتيازات التجارية والدبلوماسية، بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية بوساطة الرئيس ثيودور روزفلت بين الأطراف والتي قامت وقتها بأول خروج لها للمشاركة في النزاعات الدولية، متخلية عن مبدأ " مونرو" الانعزالي... وكذلك ألمانيا التي حظيت باستعمار الكونغو.

كما أعاد هذا التوتر الى ذاكرتنا قصة الاستعمار والحماية الاسبانية على شمال وجنوب المغرب تحت ستار الإصلاح والتهدئة، م كذلك الحداثة وتدويل الاقتصاد المغربي.

وهذه هي بعض المحاور التي اريد أن أتقاسمها معكم كباحث في التاريخ و التراث وكشاهد عيان بحكم ازديادي سنة 1952 بالفنيدق زمن الحماية ومعايشة حكم فرانكو الى مماته سنة 1975، وكذلك بحكم أنني ابن الإمام والخطيب لأكثر من نصف قرن بالمسجد الأعظم بالفنيدق الذي بني قبل الاستقلال، وكوني كذلك حفيد الفقيه المجاهد المصمودي الذي كان على رأس المجاهدين الذين قاوموا الإسبان في معركة البيوت الكبرى 1916/06/29 والتي جرح فيها القبطان فرانكو و التي كادت أن تغير مجرى التاريخ.

وضعية الأحباس في شمال المغرب زمان الحماية وما قبله:

يوجد بمنطقة الحماية العديد من الأوقاف والمنشآت المحبسة أبرزها ثلاثة:

1 - أحباس المساجد الكبيرة. 2 - أحباس الأبراج والحصون. 3 - أحباس المنقطعين " الفقراء". يخصص كل واحد منهم دخله على حدة للحفاظ على المفاهيم المذكورة وصيانتها واستدامتها، وهذه الأنواع الثلاثة تسمى في منظور الوقف المغربي الحالي بالأحباس العامة ويتحكم فيها المخزن.

أما الأحباس الخاصة، التي لا تقل أهمية، والمسماة عموما بالعائلية في الشرق الأوسط، وتسمى أيضا بالمعقبة فهي العقارات التي حبسها أصحابها على أشخاص معينين، كأن يحبس شخص دارا على أولاده الذكور ما تعاقبوا ليستمر انتفاعهم.(الصورة 1-2).

سنة 1917، كانت تتولى مندوبية شؤون السكان الأصليين والمديرية العامة للحبوس مسؤولية تنظيم هذه الأوقاف والترويج لها في الوقت المناسب. كان مديرها العام بمرتبة وزير هو الفقيه سيدي علي السلاوي ونائبه سيدي الحاج عبد الله أفيلال. وكان في تطوان نظراء الأحباس يساعدوهم في مهامهم وفي قبيلة انجرة كان جدي من أبي، تغمدهم الله جميعا برحمته الواسعة، كان جدي يتقلد منصب أبي المواريث، بمثابة ناظر الأحباس.(الصورة 3).

سياسة فرانكو الاصلاحية والخيرية في شمال المغرب ابان الحماية:

بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء، عززت اسبانيا وجودها بمدينتي مليلية وسبتة التي كانت تحتلها من قبل وبدأت تتربص الفرص لتهجم على المغرب تحت ذريعة التهدئة وسميت بهذا الاسم، حروب التهدئة : ابتدأت بالمسماة بحرب الريف 1909 ثم معركة البيوت 1916المذكورة أعلاه، ثم معركة أنوال الشهيرة سنة1921 التي وصف الإسبان بالكارثية حيث قتل فيها أكثر من 10000 من جنودهم، ثم معركة الأنزال الكبيرة بالحسيمة بمساعدة فرنسا سنة 1925، ومعركة القصر الصغير سنة 1930... استمرت هذه الحرب الاسبانية المغربية 18 سنة، الى غاية 1927. ثم جاءت الحرب الأهلية الإسبانية التي روج لها القوميون حيث انطلقت في 18 يوليوز 1936 من مدينة تطوان تحت قيادة الجنرال فرانكو الذي جند من أجلها المحاربين المغاربة الذين كانوا جنودًا ينتمون إلى جيش شمال إفريقيا آنذاك، حيث كان جزءًا كبيرًا من رتبهم مكونًا من قوات محلية من النظاميين. يقول المؤرخ الدكتور

الصورة 1

PERSONAL

Director general (categoría de ministro), el fakih Sid Ali Selami.
Subdirector, el fakih Sid el Hax Abd-al-lah Afellal.

HABICES DEL HABUS (ADMINISTRADORES)

En Tetuán

Nadir del Habus el Masayed o el Kabir (de las Mezquitas o gran habus), Sid Mohamed Ben Marsok.
Nadir del Habus El Munastain o el-Doafa (de los pobres), Sid el Hach Ahamed Brixa.
Nadir del Habus del Abrax (fortalezas), Sid Mohamed el Kenani.
Habices particulares.—Lebadi, Brixa, Eraisi, Sidi Ali Ben Raisuli Sidi Sahli, Sidi Barara, Muley Abd el-kafer, Sid Abd-al-lah el Hach, Sidi Benaisa, y otros muchos.

الصورة 2

الصورة 3

الصورة 4

عبد الواحد أكمير: فرانكو كان يعي أنه لو اعتمد على الإسبان فقط فسوف لن يتمكن من الانتصار في هذه الحرب الأهلية، لذا راهن على المغاربة، وراهن وفق استراتيجية متعددة الأبعاد.

البعد الأول سياسي: كان فرانكو يدرك أن قادة الحركة الوطنية في الشمال يمكن أن يكونوا عنصرًا مهمًا بالنسبة له، فحاول إقناعهم بأنه وطني أيضًا وأن حركته وطنية. في الواقع، تعاطف معه قادة الحركة الوطنية المغربية لأنه كان لديهم خيبة أمل كبيرة من الحكومة الجمهورية، التي لم تفِ بوعودها بالإصلاحات في المنطقة. بدأ هذا التحالف بين القوميين والمسؤولين عن السياسة الاستعمارية الإسبانية، الذي لا يخلو من التوترات والانقسامات، مع بيجبدير (1936-1939) واستكمله الجنرال لويس أورجاز. بفضل هذا الإجراء، الذي كان من الممكن فيه الجمع بين التوازن بين الجيش والدبلوماسية، رأى الوطنيون المغاربة أن أحزابهم السياسية قد شرعت، بالإضافة إلى تنظيم حرية الصحافة وتكوين الجمعيات، والقيام بإصلاح تعليمي، والقيام بأمور أخرى لم يؤسسها نظام فرانكو في شبه الجزيرة.

البعد الثاني ديني: لقد عرف فرانكو أهمية الدين عند المغاربة، فحاول إقناعهم أن الحرب ليست ضد الشيوعيين، بل ضد الكفرة وضد الملحدين،... وأنه وأنصاره، حتى على الرغم من كونهم مسيحيين إلا أنهم يؤمنون بإله واحد مثل المسلمين، على عكس المتمردين الكفار. وهنا لعب باستراتيجيتين ذكيتين للغاية:

1. أرسال بعثات الى الحج:

لذلك بدأ في إرسال الزعماء الدينيين والقبائل البارزة من منطقة الحماية إلى الحج. أرسلهم في السفينة السياحية "Dómine" التابعة لشركة Transmediterranea للملاحة، التي كانت تربط برشلونة بجزر الكناري والتي أعيدت تسميتها بالمناسبة باسم "مغرب الأقصى "، أبحرت السفينة في عز الحرب الأهلية من سبتة مع الحجاج في 20 يناير 1937. وعند عودتهم من الحج، استقبلهم فرانكو في قصر المعتمد ابن عباد بإشبيلية. في الواقع، لقد روجوا لفرانكو بطريقة لم يكن يحلم

الصورة 5: Manto de la virgen de Africa عباية عذراء افريقيا ... مسجد مولاي المهدي بسبتة

بها: ترددت شائعات بين المغاربة أن فرانكو قد أسلم بالفعل، وأن اسمه كان الحاج فرانكو، وأنهم رأوه في عرفات يؤدي مناسك الحج، وأن هدفه كان مساعدتهم على استعادة الأندلس. (الصورة 4).

2. إنشاء الزوايا والأضرحة والمقابر والمساجد:

- **مسجد مولاي المهدي في سبتة**، المعروف أيضا لدى السبتيين باسم "الجامع الكبير" بدأ بناؤه عام 1938، ودُشن في يوليو 1940 في حفل كبير حضره خليفة السلطان مولاي الحسن بن المهدي حيث سمي باسمه، والمقيم العام الإسباني كارلوس أسينسيو. مولت المشروع الحكومة الاسبانية اعترافا منها بالجميل وبالتضحيات التي قدمها الجنود المغاربة إبان الحرب الأهلية الإسبانية، بدليل اللوحة الرخامية عند مدخل المسجد التي تتضمن عبارات الشكر والامتنان من القائد فرانكو نفسه... ورغم صدور قانون الذاكرة التاريخية عام 2007 الذي سعى إلى محو آثار الدكتاتورية الفرانكوية بإزالة تماثيل الجنرال فرانكو وإعادة تسمية العديد من الشوارع التي تحمل اسمه، فإن أثر هذا القانون لم يشمل المسجد الذي ما زال يستقبل زواره بكلمات الجنرال: "حينما تزهر ورود السلام سنقدم لكم أجمل الزهور" و كذلك العباية التي أوقفها " المراقبون الأسبان" على "عذراء افريقيا" مرقومة بخيط من ذهب بأسماء المواقع التي احتلوها في حروب التهدئة الواحدة تلو الأخرى. (الصورة 5)

- **فيما يتعلق بالمسجد - الكاتدرائية في قرطبة**، بغض النظر عن مدى "جنون الفكرة" ، مع الأخذ في الاعتبار الحماس الكاثوليكي المتطرف للدكتاتور الإسباني والنية الحالية للمجمع الكاطوليكي لقرطبة (كابيلدو Cabildo) لمحو كل ما يتعلق بالماضي الاسلامي لمسجد قرطبة حيث يرفضون تسميته على هذا النحو... رغم كل هذا كان فرانكو على وشك إعطاء الضوء الأخضر لمشروع "تطهير" النصب التذكاري"، كان هذا هو اسم الفكرة المذهلة المتمثلة في "نقل الكاتدرائية المسيحية بأكملها"، التي كانت موجودة في قلب مسجد قرطبة في عهد كارلوس الخامس (القرن السادس عشر)، إلى مكان آخر في المدينة حجرًا بحجر. وكان الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية قد وعد فرانكو بتمويل عشرة ملايين دولار لهذا الغرض في ذلك الوقت.

- **مسجد المرابطين (El Morabito)** بني عام 1940 كهدية من فرانسيسكو فرانكو للحرس المغربي الذي تم الاستغناء عنه بعد حرب إفني 1957 - 1958... سنة 1950 تغير استخدامه الديني إلى مكتبة، ولكن بناءً على طلب جمعية المسلمين في قرطبة وبمساعدة عمدة قرطبة خوليو أنغيطا ، أصبح مسجدًا مرة أخرى سنة 1992.

الصورة 6: ضريح سيدي المختار غيلان ببني كيسان باقليم العرائش

الصورة 7: ضريح سيدي علي احرازم بجماعة ملوسة

الصورة 8 : ضريح سيدي العربي غيلان بأصيلا

شيدت بهذا المكان سنة 1954 باقتراح من الدكتورألفونسو طركانو Dr Alfonso Turegano المختص في الأمراض العقلية بمساعدة الدكتور بن يعيش رحمه الله و محسنين آخرون مستشفى يضم 50 سرير لعلاج الأمراض العقلية المستعصية والمجانين وادماجهم في برنامج : العلاج بالممارسة" TERAPIA OCUPACIONAG في ضيعة فلاحية شيدت هناك لهذا الغرض. كما كان الدكتور طركانو يعالج ويتابع بعض المرضى المختلين عقليا بضريح سدي العربي غيلان بأصيلا و طنجة. (الصور: 6-7-8-9)

الصورة 9

Fig. 16. Servicios Centrales y de Hospitalización.

الصورة 10

- **مقبرة غرينيون:** إبان الحرب الأهلية الاسبانية [1936-1939] خصص الجنرال فرانسيسكو فرانكو جزءا مهما من المقبرة العسكرية المتواجدة في بلدية غرينيون التي تبعد حوالي 30 كيلومترا جنوبي مدريد، لدفن جثامين الجنود المغاربة الذين كانوا يقاتلون في صفوف قواته.وبعد انتهاء الحرب الأهلية بقيت المقبرة مفتوحة في وجه المسلمين إلا أن عددا قليلا من أبناء الجاليات المسلمة كانوا يقومون بدفن ذويهم في هذه المقبرة التي تعاني من الإهمال في غياب أية عناية من السلطات المغربية التي تسلمت إدارة هذه المقبرة.

بالعودة إلى موضوع الحج، نقول إن السفينة السياحية El Marqués de Comillas هي التي لعبت دور البطولة في آخر رحلتين إلى مكة، في 14 يناير 1938، وفي 5 يناير 1939، أبحرت مرة أخرى من سبتة في آخر رحلة لها وهي الأكثر شعبية بين الثلاثة. ويبلغ عدد الحجاج الذين يسافرون على متن السفينة 1009 حاج، دفعوا من 900 إلى 1950 بيزيتا من الدرجة الأولى. لكن عندما يعود الحجاج، تنتهي الحرب الأهلية ولا يهم أي شخص تاريخ الحجاج. لم يعد فرانكو بحاجة إلى جنود مغاربة، وألغيت رحلات الحج إلى مكة بعد أشهر قليلة بحجة اندلاع الحرب العالمية الثانية، وبدلاً من ورود السلام الموعودة، وصلت أزهار النسيان الذابلة.

البعد الثالث ثقافي: كان لدى فرانكو معرفة كبيرة باللغة والثقافة المغربية، وكان مقتنعا بأهمية التعليم كأداة ميسرة لرقابة معينة على المجتمع وكذلك جودته كأداة مفيدة لتحسين التصرف في المجتمع والسكان المحليين تجاه المسؤولين الإسبان وعملهم الوقائي. كان المقصود هو التدريب الذي، وفقًا لنماذج المناهج الإسبانية، على احترام القيم والمبادئ الأساسية للثقافة الإسلامية المحلية، وخاصة فيما يتعلق باللغة والدين من خلال تعليم ومعرفة القرآن. مجلة القوات الاستعمارية التي كان يديرها فرانكو Revista de tropas coloniales، بالإضافة إلى نشر المقالات ذات المواقف الإفريقية، غالبًا ما كانت تنشر موضوعات تتعلق بممارسة الإسلام.

وهكذا تم إنشاء مدرسة البوليتكنيك للتكوين المهني (اليوم جابر ابن حيان حيث درست). أخيرًا، للخروج من عزلته، سعى فرانكو إلى كسب ود العرب، وانصياعًا لزعماء الحركة الوطنية بتطوان، أرسل بعثات طلابية إلى نابلس في فلسطين ولبنان، وتم إنشاء البيت المغربي في القاهرة وإرسال العديد من الطلاب الذين حصلوا على منح دراسية من إسبانيا إلى مراكز دراساتهم العليا.

وتجدر الإشارة إلى أنه إذا كان المغرب قد لعب دورًا رئيسيًا في تغيير النظام في إسبانيا إلى ديكتاتورية، الا أنه لم يكن المغرب الرسمي: أولاً لأن المغرب كان تحت الحماية وثانيًا لأن السلطان محمد بن يوسف أدان هذا الفعل برسالة موجهة إلى الجنرال المقيم العام الفرنسي، استنكر استغلال المغاربة في قضية ليست قضيتهم وضد حكومة منتخبة ديمقراطيا في إسبانيا.

الصورة 11 : الصورة للمستشفى الإسباني بطنجة و للأمير خوان كارلوس حيث خضع لعملية جراحية به سنة 1954، وفتيات مدرسة الممرضات أربعة منهن تخصصن في رعاية الطفولة و نودي عليهن لرعاية الأمراء بالقصر الملكي.

بعد انتهاء حروب التهدئة 1927 جاء دور البناء و التشييد:

دفعت فترة ما بعد الحرب الإسبانية الأهلية (1936-1939)العديد من الإسبان إلى الهجرة إلى الأراضي المغربية ، وتحديداً مع الحماية الإسبانية، مما تسبب في زيادة عدد السكان الأسبان بشكل كبير، ومن هنا جاء الطلب على تطوير البنية التحتية، فكانت فترة الحماية حاسمة في بناء وتحديث التعليم والتدريس المغربي وبالخصوص بناء مرافق صحية جديدة ومستشفيات لخدمة هذا العدد الكبير من الناس.

في إحصائيات عام 1955، كان هناك أربعة وأربعون مركزًا طبيًا ريفيًا و11 مركزًا طبيًا حضريًا. وبلغ العدد الإجمالي للمنشآت الصحية 93. وبلغ عدد العاملين في الخدمة المدنية 115 موظفًا وإجمالي عدد العاملين الصحيين 676. (الصورة 10-11).

فيما يتعلق بالعمل الصحي، كان على السلطات الإسبانية أن تواجه موقفًا يمكننا اعتباره كارثيًا، سواء فيما يتعلق بمكافحة الأمراض الوبائية (التيفوس، الملاريا، إلخ)، وكذلك فيما يتعلق بالإشارة إلى الصحة والأساليب التي مورست في المغرب عام 1912. هذا ملصق بجودة ضعيفة، ولكنه أكثر فعالية، كان موجهاً بوضوح إلى السكان المغاربة، كما يتضح من بروز الشخص الذي يرتدي الجلابة الذي يأتي منحنياً ويساعد نفسه بعصا إلى المكتب ويخرج منتصباً تماماً بدون الحاجة إلى أي نوع من الدعم.

المشهد الديني في سبتة عبر التاريخ:

كما هو معلوم، بعد جلاء المسلمين واليهود من الأندلس، أنشأت محكمة تابعة للديوان المقدس Tribunal del Santo Oficio de la Inquisición واشتهرت بمحاكم التفتيش الإسبانية (Inquisición española). أسسها الملوك الكاثوليك فرناندو الثاني وإيزابيلا الأولى في 1478 بموافقة البابا سيكستوس الرابع. ومهمتها الحفاظ على العقيدة الكاثوليكية في الممالك الإسبانية. ويستخدم تعريف "محاكم التفتيش الإسبانية" على نطاق واسع في إسبانيا وجميع المستعمرات والأقاليم الاسبانية: ومنها جزر الكناري وهولندا الإسبانية ومملكة نابولي وجميع مستعمرات إسبانيا في أمريكا الشمالية والوسطى وأمريكا الجنوبية، و منها كذلك سبتة التي سلمها البرتغال للإسبان بموجب اتفاقية لشبونة سنة 1668 وفي نفس السنة آنا دي أوسطريا Ana de Austria، أرملة الملك فليبي الرابع Feilpe IV والوصية على إسبانيا، أنشأت محاكم التفتيش بسبتة.

واستمرت محاكم التفتيش حتى تم الغاؤها بالتصويت بالأجماع في أول دستور سنة 1812 بمدينة كادس مع اقرار كاثوليكية الدولة ورفض الاعتراف بالديانات الأخرى، و لم يتم الغاء محاكم التفتيش نهائيا الا سنة 1834م في عهد إيزابيلا الثانية، بعد أن تراجع نفوذها في القرن السابق.

أول دستور يتبنى مبدأ الفصل بين الدين والسياسة في تاريخ إسبانيا هو دستور عام 1931، والذي تبنته حكومة الجمهورية الثانية. ومع ذلك، تبنى فرانكو، بعد انقلابه مرة أخرى، مبدأ كاثوليكية الدولة. ولم يتم تبني المعايير الأوروبية المتعلقة بفصل الدين عن الدولة والاعتراف بحرية الدين إلا بعد وفاته، بعد الموافقة على دستور جديد في استفتاء عام 1978. وفي إطارها

الصورة 12

الصورة 12

تم تأسيس المجتمعات الدينية المحلية، وكذلك اتحاد الجاليات الإسلامية في إسبانيا (UCIDE)، والاتحاد الإسباني للكيانات الدينية الإسلامية (FEERI)، ومن كلاهما انبثقت المفوضية الإسلامية في إسبانيا CIE التابعة لوزارة العدل والتي تتكفل بشؤون المسلمون عبر ترابها الوطني.

منذ سنة 2007، تقوم السلطات الإسبانية بمدينتي سبتة ومليلية المحتلتين بشمال المغرب بمحاولة فك الارتباط الروحي والسياسي للمغاربة بوطنهم وملكهم ودينهم ومذهبهم، واستمالة بعض الأئمة لأطروحتهم، وذلك ببسط الهيمنة الدينية ضد المسلمين وبتنفيذ خطة دينية لسحب البساط من تحت المملكة المغربية خاصة في المساجد وعند صلاة العيدين. أن بسط الهيمنة الدينية هو آخر بند في الخطة الاستعمارية الإسبانية : (الصورة12)

إذ بعد أن حذفوا الأسماء العائلية للمغاربة لقطع الصلة التاريخية بين المقيمين بالمدينتين المحتلتين والمغاربة في المغرب المستقل، أتبعوا ذلك بقرار إعطاء الجنسية الإسبانية ثم جاء بعد ذلك قرار الإدماج، ثم عدم الاعتراف بوثيقة عقد الزواج الشرعية التي كانت المحاكم المغربية تسلمها لهم، ليأتي في الأخير الدور على المساجد ومحاولة منع رفع الدعاء فيها لملك المغرب بصفته أميرا للمؤمنين. الا ان وزارة الأوقاف المغربية تصدت بحزم لهذه الخطة و استدركت الموقف تدريجيا و في هدوء لتصبح هي الوصية على كل مساجد

الصورة 13 " سبتة الان" (CEUTA YA !) الذي يقوده محمد مصطفى الذي يعلق مسلمي سبتة أمالا كبيرة .

سبتة التي تفوق عددها الخمسين، تؤدي ما يعادل مليون أورو أجور الأئمة و القيمين وخطباء الجمعة الذين يرفعون خطبهم بالدعاء لصاحب الجلالة أمير المؤمنين.

بين لنا هذا المرصد للتعددية الدينية في اسبانيا الفرق الكبير بين عدد المساجد ودور العبادة والكنائس ودور عبادة أديان الأخرى، وبلغة أخرى بان غالبية سكان سبتة مسلمين وأن سبتة مسلمة تابعة لأمير المؤمنين وترفع فيها خطب الجمعة بالدعاء لجلالة الملك نصره الله. مسلمي سبتة ينقسمون الى تيارين: اتحاد الجاليات الإسلامية UCIDE الذي يضم أكثر الجمعيات الإسلامية بسبتة والتابع لسياسة الحكومة الاسبانية وللمفوضية الاسلامية الاسبانية، والفدرالية الإسبانية للكيانات الدينية FEERI التي ترعاها الرباط (الصورة 12).

سياسيا حزبان من أصول مغربية يتقاسمان المشهد السياسي حاليا: "الحركة من أجل الكرامة والمواطنة" (MDC) التي ترأسه المحامية فاطمة حامد و لها مقعدين و هي التي كانت قد انشقت عن حزب "كباجاس" (CABALLAS) الذي يرأسه المحامي محمد علي وله مقعد واحد. وكان قد أعلن مؤخرا تخليه عن السياسة و ذلك ليفتح المجال لحزب جديد الصورة 13 :